مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: التفكير البلاغي في كتاب المقتصد في شرح الإيضاح مراجعة في أصول نظرية النظم
اسم الكاتب: د. يوسف العمر
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/2884
تاريخ الاسترداد: 2026/11/02 13:04 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

التَّفكيرُ البلاغيُّ في كتاب المقتصد في شرح الإيضاح
مُرَاجعةٌ في أصول نظريَّة النَّظم

د. يوسف العمر*

الملخَّص

ما من شيء أجلّ وأنبل، ثمّ هو أنفع وأمتع من أن يتجرَّد القلم مخلصًا؛ ليبحث عن مهدِ الأفكار وتاريخها إلى أن يبصرَ مَنبَعَها ومَنبِتَها، ونضالَ أهلِها النَّبيلَ في توليد الكلمة من الكلمة، واستنباط العلم من العلم، وهكذا سوَّلت لي النَّفس أن أُرجِع النَّظر في هذا الكتاب الجليل (المقتصد) كرَّتين؛ لعلِّي أقتبس منه ما ينتهي إلى ثلج اليقين بتوسع فكرة الوداد التي تجمع النَّظرين النَّحويَّ والبلاغيَّ في مهد واحد؛ ليستبين منهاجُ الأجداد في وضع العلوم، وتفريع بعضها من بعض، وهكذا أيضًا بدأ الجرجانيُّ(ت471هـ) بشرح كتاب الفارسي(ت377هـ)، شرحًا صبر عليه حتَّى قدح له زناد فكرة متوهِّجة، تُعَدُّ وجهًا بديعًا من وجوه تكامل النَّظريَّتين النَّحويَّة والبلاغيَّة، ينفي عن العلمين صديد ما يمضغُهُ المجدِّدون عن عجز التُّراث عن تجديد نفسه بنفسه، ونضوبه وشحوبه الذي صرف الجيل -إلا من رحم ربُّك- إلى نظريَّات لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِت كلًا.

الكلمات المفتاحية: النَّحْو، البلاغة، علم المعاني، النَّظم، التَّجديد.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

Réflexion rhétorique dans *Kitāb al-Muqtaṣid fī šarḥ al-'Iḍaḥ,* Examen des origines de la théorie de la construction "nazm"

Dr. Youssuf Al-'Amr[**]

Résumé

Il n'existe rien de plus noble, de plus gratifiant, de plus utile et de plus agréable que lorsque la plume se consacre entièrement et sincèrement à la recherche des origines des idées, à la poursuite de leur histoire pour déceler leurs sources, et mettre en lumière le travail honorable de leurs fondateurs pour générer un mot d'un autre mot, et extraire la connaissance de la connaissance. Ainsi je me suis permis de revisiter ce grand ouvrage *al-Muqtaṣid* à deux reprises, dans l'espoir d'en extraire ce qui pourrait me conduire au contentement de la certitude en ce qui concerne la complémentarité qui relie les théories sur la Grammaire et celles sur la Rhétorique au sein d'un même et unique creuset, afin de démontrer la méthode des ancêtres dans l'élaboration des sciences, leur dérivation des unes des autres et leur rattachement les unes aux autres. C'est ainsi qu'al-Jurjani (né en 471 de l'Hégire) a commencé à expliquer *al-Īḍāḥ* de Abū 'Ali al-Fārisī (né en 377 de l'Hégire), en faisant preuve de beaucoup de patience jusqu'à ce qu'il trouve l'élément déclencheur d'une idée brillante: celle de la merveilleuse complémentarité des deux théories grammaticale et rhétorique, ce qui contredit formellement le rabâchage des réformateurs modernes qui nient la capacité d'auto-renouvellement du patrimoine classique, et qui prônent son épuisement et sa pâleur, ce qui a dirigé la nouvelle génération - sauf exception- vers des théories stériles et inefficaces.

Mots-clés: grammaire, rhétorique, sémantique, construction "*nazm*", renouvellement.

[**] Université de Damas, Collège des arts et des sciences humaines, Département de langue arabe.

مقدمة:

لا يمكن أن يزدهر علمٌ ليكون من ثَمَّ خميرة خصبة لإنبات علم جديد، إلا بالتَّأمُّل في لطائفه، وإدمان قرع أبوابه، وإخلاص النِّيَّة لفهم ما يختفي وراء تلك الأبواب؛ وذلك بعد أن تستقرَّ قواعده، وتتوضَّح مناهجه، وتستتبَّ أسبابه، ويفرغَ أهله من بيان قوانينه؛ ليجوسَ الفكر بنظره بعد ذلك خلالَ هذه الأصول، يردُّ إليها الفروع، ويستقلُّ سواقيها؛ ليصل إلى النَّبع الذي انبجست منه الفكرة الأصل، وقُدِحَ زنادها؛ ليجد هناك متعة الكشف، ويستبين له الطَّريق الذي أفنت فيه تلك العقول المخلصة كفاحًا صادقًا في الاستنباط والبناء، وهذا سرٌّ عظيم من أسرار التَّكامل في النَّظريَّتين النَّحويَّة والبلاغيَّة العربيَّة، مازال مغيبًا أو شبه مغيَّب، وأظنُّ ـ والظَّنُّ في هذا المقام أشبه بالحقيقة ـ أن لو طُرِقت أبواب الغيب فيه، وكُشِف عن المستور والخافي، لعُتِقَت علوم العربية من أسوار الجمود التي رُمِي النَّحو خلف جدرانها، كما رُمِيت البلاغة في مستنقع موت الحسِّ البلاغيِّ، وأنَّها قد استحالت قيعانًا مجدبةً، وهلمَّ جَرًّا إلى الشِّعر العربي الذي رُمِي بفقدان الوحدة العضويَّة، وغيرها من الأوهام والبلايا، وهي ظنون فاسدة، واعتقادات باطلة، غيرها أقوم منها قيلًا، وأقرب إلى الصَّواب وطبائع الأشياء، التي يقتضي منطقها الداخليُّ أن يُبحَثَ في مطاويها؛ ليبين وجه الفساد إن وُجِدَ، ويُكشَفَ عن الصَّواب والتَّكامل إن توفَّر، فيُشَاد به، ويُشَار إليه، ويُفَرَّع عنه، ويُبنَى عليه، وهذا شيء لا يكون إلا في النُّفوس التي تخاف مغبَّة اللجاج المفسد للرَّأي. وتلك عقبى الإقدام على ما لا يعلم المرء أصواب هو أم خطأ؟

هذا، والكلام على الأصول، أو التَّفكير البلاغيِّ في كتاب المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني كلام إخاله جيِّدًا، ربَّما نشر مرَّة أخرى ما ظلَّ من نفائس هذا التُّراث مطويًّا؛ بل ربَّما كان له أثرٌ حميد في فهم المنهج الذي اتَّبعه العلماء العرب في استنباط العلوم، وبناء بعضها على بعض، وتفريع بعضها من بعض، وهو منهج حفظنا نتائجه وتقبَّلناها بقَبُول حسن، ورضينا بالإحجام بعد ذلك عن الإقدام لفهم طرائق هذا الاستنتاج كيف كان؟ ومن أين بدأ؟ ولماذا؟.

ولهذا أظنُّ مرَّة ثانية، أنَّ العلوم لا تكبُر بعيون أبنائها إلا بالتَّفتيش في زواياها، وسؤال الكلمة عن عقليَّة من باتوا تحت الثَّرى كيف استنبطوا ما استنبطوه؟ وبهذا وبمثله يمكن أن يخطوَ الخلف خطوة جديدة في تراث السَّلف، تزيده ألقًا وإشراقًا، وعزَّة وكبرياء، حتَّى يكون قادرًا من ثَمَّ على أن يستنَّ لنفسه منهجًا مستتبًّا واضحًا يبنيه على ما سلف، بعد أن ينفي –كما قلنا– عن السَّالف التَّحريفَ والانتحالَ والتَّأويلَ على غير هدًى أو بيان.

وقد كان من قضاء الله تعالى وتقديره أن عكفت على دراسة عبد القاهر زمنًا ليس بالقصير في مرحلتي التَّخصص، وتلك دراسة تفرضُ على المرء أن يلمَّ بما كتب العَلَمُ الذي يدرس، بيد أنَّي قرأت هذا الكتاب الجليل (المقتصد) على عجل في المرحلة الأولى، ولكنَّها عجلة وهبتني ريثًا في المرحلة الثَّانية؛ لأقرأه على مُكثٍ لزَّتني إليه أسئلة عن العِلْم الذي يكتب فيه عبد القاهر، وثانية عن نظريَّة النَّظم وبنائها؛ ولعلَّ من أكثرها حزًّا في النَّفس ما قاله بعضُ مَنْ سبقت إشارتهم (أعنى من قالوا بنظريَّة التجديد): إنَّ نظريَّة الجرجانيِّ بناء مفكَّكة جدرانه وسقوفه، وإنَّه ربَّما يحتاج إلى ترتيب يصلح ما أفسده عقل عبد القاهر، الذي تأثَّر –وهذه ثالثة لها عظيم الأثر– بما كتب أهل يونان في منطقهم وآدابهم وما قول من ينسبون هذه النَّظريَّةَ إلى هذا العَلَم الجليل إلا إفك قديم افتروه ليرضوا شعورهم بالنَّقْص، ولله الأمر.

أهمِّيَّة البحث وأهدافه:

لا تكون القراءة جادَّةً مخلصة إلا إذا حلَّت لغزًا، أو أزالت إبهامًا، أو أسهمت في الإجابة عن شيء من مبهم الأسئلة التي تُثَار في علم بعينه، وأحسب أنَّ قراءة عقليَّة علمائنا رضوان الله عليهم، ومحاولةَ الاقتداء بما استتَّته من أصول وسنن في القراءة والفهم= حريٌّ أن يأخذ المقتدين به إلى مدب أقدام الأوائل. وهذه كلمة تحاول أن تستبين منهج الجرجانيِّ الذي عانى قراءة المقتصد لأبي عليٍّ الفارسيِّ، وكابده مكابدةً صابرةً حتَّى أنطقه بنظريَّة شامخة، ما يزال النَّاس يغمسون فيها أقلامهم؛ لتسفر عن حقائق جديدة كما لو أنَّها الآن تولد.

منهج البحث:

التَّحليل والاستنباط، وإليهما تُضَاف الرَّويَّة والفكر، من أصول النَّظر العربيِّ العتيق في تدوين العلوم، وسنِّ سننها، ووضع أصولها وقواعدها. وللإمام عبد القاهر في هذا كله القِدْح المعلَّى؛ إذ وضع بتحليله واستنباطه أصول منهج عالٍ في قراءة العربيَّة، وهو منهج التَّحليل الذي سيبين وشيكًا شيء من طرائقه ورسومه.

أوَّلًا: كلمةٌ في منهاج الأوائلِ:

أصاب العلوم العربية بلاء مستحكم، وداء عضال دبَّ فيها دبيبًا كاد يصرف أبناءها عن تاريخها وحضارتها وآدابها، ويزوي قبلتهم إلى جديد ليس فيه إلا المقت والهلاك والضَّياع، ذلك هو داء التَّجديد الذي أشاعته في الآفاق عصبة أطاعت بليل أمرَ غاويها، حتى زيَّن لها أنَّ الأوَّل لم يترك للآخر شيئًا، وأنَّنا لو بقينا الدَّهر الأطول نفتِّش في هذا التُّراث، ونصعِّد ونصوِّب، لن نخرج منه نقيرًا جديدًا، ولكن الأمر مقدَّر بخلاف ذلك،

مصرَّف بتصريف لا تطيقه العقول التي ملَّكت الهوى والتَّقليد زمام أمورها؛ لأنَّ في هذا التُّراث صفحاتٍ مضيئةً تدلِّل على اجتهاد الأوائل، وكفاحهم في استنباط العلوم، كمثل نضال هذا الرَّجل (عبد القاهر الجرجاني) الذي أصرَّ، وهو يقرأ المقتصد، إصرارًا عجيبًا، لم يفْتُرْ ولم يكِلَّ ولم يَلِنْ، وجاهد الكلمة في مهدها الأوَّل جهادًا نبيلًا، حتى افترَّت له الكلمة الأثيرة عن شيء جديد، حملته لذَّة الاكتشاف فيه على أن يجعله الخالص واللُّبَّ، وإنسان العين وحبَّة القلب، في نصٍّ من أجلِّ النُّصوص وأكرمها وأكثرها عمقًا ودلالة على هذا الصَّبر، ثمَّ هو من أدلِّ النُّصوص على هذا التَّكامل الدَّقيق، وأوضحها في الإشارة إلى ما البحث سائر في دروبه؛ أعني صبر العلماء الأوائل على تقليب الفكرة حتَّى ينغلَّ في جوفها، فيعيش معها وفيها دهرًا كريتًا، فإذا ما استوى نبتها واستحصد، أفضى به ذلك إلى علم آخرَ غير العلم الأوَّل، لا يخالفه ولا يعاديه؛ لأنَّه تحدَّر من صلبه، ومن رحمه وُلِد.

ولعلَّ وضع النَّص المشار إليه بين يدي هذا الكلام، ممَّا يُستَحبُّ ويُستَحسَنُ. قال الجرجانيُّ: «**<u>وإنَّه على الجملة بحثٌ ينتقي لكَ من علم الإعراب خالصَه ولبَّه</u>، ويأخذُ لك منه أناسيَّ العيون وحباتِ القلوب، وما لا يدفع الفضل فيه دافعٌ، ولا يُنكِر رُجْحانَه في موازين العقول مُنْكِر**»[1].

فخلفَ كلِّ تركيب، ووراء كل متن من متون ألفاظه، حكايةُ اجتهادٍ طويل، صَبَرَ فيه على مراجعة علم بأكمله (علم الإعراب)، ثمَّ وضعه إلى جوار علم آخرَ، لا يقلُّ عنه صعوبة ومشقَّة، وهو (الشِّعر العربي) مراجعة زادُها الرَّويَّةُ والتَّأمل، وراحلتُها الصِّدقُ والإخلاصُ، ومن هاتين المراجعتين اعتصر الرَّجل للعربيَّة علمًا جديدًا، نحن ذاكرون أطرافًا من حديثه متفرِّقات على امتداد هذه الورقة.

وهذا هو متن منهج عبد القاهر ولبابه بلا حواش، والاختيار، أو ما سمَّاه الانتقاء، هو عمدة هذا المنهج وعموده؛ ولعلَّ من غلبة العجلة والتَّسرُّع، التي تفضي براكبها إلى الخلل والزَّلل أن يجريَ تأويل كلامه على أنَّه أخذ من علم النَّحو شيئًا بعينه، وطرح شيئًا آخر دُبُر أذنيه غير حافل به، ولا هو محتاج إليه؛ لأنَّه بهذا مختصر ومتخفِّف، وليس بقاصد وجهًا يؤمُّ إليه من وجوه الاستخراج والاستنباط؛ ولعلَّ هذا المعنى القريب الدَّاني أيضًا، هو الذي أوقع المحدثين فيما وقعوا فيه من حيف غليظ، وتعسُّف جافٍ بغيض عندما همُّوا برسالة التَّجديد وهم عنها بمنقطع التُّراب؛ لأنَّ جلَّهم، إنْ لم نقل: كلَّهم، قد

[1]– دلائلُ الإعجازِ: ص: 42.

اتّكأ على كلام عبد القاهر، إمَّا جهرًا ومكاشفة، وإما سرًّا وخُفية، فطفق بعضهم يبتر من أبواب النَّحو ما يحلو له ويطيب[2]، فأدغلوا فيه الفساد صِرفًا من حيث أرادوا الصَّواب.

وندع الجرجانيَّ –حتَّى لا نقع في التَّحيز المبتذل– يحدِّثنا عن عصبة في زمانه، تضارع عصبة المحدثين من حيث المنهج والمقصد، والمنهج ههنا مجاز لا حقيقة، فحاججهم –على طريقته في طرح الاعتراض ورده– أن «انظروا في الذي اعترفتم بصحَّته وبالحاجة إليه [يعني حجَّتهم: أنَّ النُّحاة قد ارتكبوا أمرًا إدًّا، فكثَّروا مسائل النَّحو، وحَشَوها بأشياءَ لا يجني منها الفكر إلا الكدَّ والسَّأم] هل حصَّلتموه على وجهه؟ وهل أحطتم بحقائقه؟ وهل وفَّيتم كلَّ باب منه حقَّه، وأحكمتموه إحكامًا يؤمنكم الخطأ فيه إذا أنتم خضتم في التَّفسير، وتعاطيتم علم التَّأويل، ووازنتم بين بعض الأقوال وبعض، وأردتُّم أن تعرفوا الصَّحيح من السَّقيم، وعدتم في ذلك وبدأتم، وزدتم ونقصتم؟.. وهل رأيتم إذ قد عرفتم صورة المبتدأ والخبر، وأنَّ إعرابهما الرَّفع، أن تتجاوزا ذلك إلى أن تنظروا في أقسام خبره.. إلى سائر ما يتَّصل بباب الابتداء من المسائل اللطيفة والفوائد الجليلة التي لابدَّ منها؟ وإذا نظرتم في الصِّفة مثلًا، فعرفتم أنَّها تتبع الموصوف، وأنَّ مثالها قولك: (جاءني رجل ظريف) و(ومررت بزيد الظَّريف)، هل ظننتم أنَّ وراء ذلك علمًا...؟»[3].

وقد نقلت هذا النَّصَّ مختصرًا منه ما أمكن اختصاره؛ لأستظهر به على إثبات أمرين، وإن كان أوَّلهما ثابتًا بنفسه لا مراء فيه وجدال؛ فإذا كان الجرجاني قد سطع برهانه وهو يحاجج قومًا لُدًّا، فإنَّ عجزهم ولجاجهم قد صار حجَّة دامغة على عجز المحدثين ولجاجهم.

وهذا أمر قال به كثر، وتكرار القول فيه ربَّما يكرب النَّفس ويأخذ بأكظامها. أمَّا ثاني الأمرين –وهو صلب هذا البحث، وتوضيحه أولى وأهمُّ– فيقدح زناده ما وضعتُ تحته خطًّا؛ إدلالًا به، وإشارة إليه، وهو يرجع بالقول إلى حيث انتهى الكلام في صفحة سبقت عن منهج الرَّجل في استنباط علمه.

فإذا تجاوزنا –من غير إهمال– إشارته إلى احتياج الإنسان لعلم النَّحو إذا ما همَّ بتفسير كلام ربِّه سبحانه وأنَّ مَنْ يخوض في هذا اليمِّ العظيم (علم التفسير) بلا عدَّة

---

[2] – ينظر على سبيل المثال لا الحصر: مناهج تجديد: أمين الخولي، ص: 57 وما بعدها؛ وكذلك: تجديد النحو: شوقي ضيف، وقد ذكر في الصفحة الخامسة من كتابه أنه سيحذف من أبواب النحو ومسائله ما وجده قد زُجَّ خلالها زجًّا قد جانب الصواب؛ وينظر أيضًا: دراسة في البلاغة والشعر: محمد محمد أبو موسى، ص: 14 وما بعدها. فقد ذكر الشَّيخ أبو موسى شيئًا شبيهًا عن تسرُّع هؤلاء في فهم ما قدَّمه عبد القاهر.

[3] – دلائل الإعجاز، ص: 31/3.

تقيه أهواله ومعاطبه، كمن يسعى إلى الهيجا بغير سلاح= فإن من تمام البيان ألا نتجاوز حديثه عن الموازنة بين الأقوال؛ لأنَّ الموازنة بين الأساليب، الأصلُ الأصيل الذي ازدهرت به نظريَّة النَّظم وغنيت مادَّتها. وهذا هو معنى وضعه النَّحوَ بإزاء الكلام الفصيح العالي من شعر ونثر، وهذه كلمة تحتاج إلى بيان أوفى.

فليس المقصود بهذا أنَّ الرَّجل يتحدَّث عن الاستشهاد، ولا هو منه ببال؛ لأنَّ قواعد النَّحو لاحبة مستتبَّة قد قرَّ قرارها وتوضَّحت أسبابها؛ بل المراد -وهذا هو معنى الانتقاء وأناسي عيونه كما قال- أن تُحَصِّلَ باب الابتداء الذي ذَكَرَ، وتفهم قواعده وفنونه، ثمَّ تتخل له من عيون الشِّعر ما تستطيع[4]، ثم تتدبَّر معانيه وأسباب ورودِ المعرفةِ معرفةً، وورود النكرة نكرةً، وأسبابَ تقديم المقدَّم وتأخير المؤخَّر، وعلةَ المطلق والمقيد، ودواعيَ المظهر والمضمر، وهلم جرًّا، فأنت هناك واجد لهذه الأبواب، التي ربَّما بدت في مواضعها كزَّةً جافية، رنَّة خاصَّة، ونشوة غريبة ربَّما أوصلتك بالأناة والصَّبر بما في ضمير قائلها وغيبه المغيب في أغوار نفسه، وهذا تأويل جُلِّ نصِّه فيما أظنُّ وأحسب؛ فلا يمكن أن يجد المرء مهما أجهد نفسه للـ (المسائل اللطيفة والفوائد الجليلة) تأويلًا غير هذا. وإلا فما اللطف وما الجلال في صورة المبتدأ والخبر، وأن إعرابهما الرفع= وأن للخبر صورًا، فيرد مفردًا تارة، وجملة تارة أخرى؟.

وليس اختيار الجرجانيِّ ليكون عَلَمًا على هذا المنهج، وآية من آياته، وشاهدًا عليه، بدليل على نسخ غيره، أو أنَّ غيره لم يبلغ مداه= ليس هذا المراد؛ بل لو نظرنا فيما صنعه الخليل بن أحمد(ت175هـ)، لوجدنا هناك نظرًا متدبِّرًا، وفكرًا متجولًا، وعقلًا نقيًّا تقيًّا يغلق على نفسه بابه، لا تجاوزُهُ همَّتُه[5]، ويستجمع نفسه وسوانح فكره حتى إذا بلغ أناه، جرَّد قلمه متجرِّدًا من كلِّ ما يعوقه عن هذه الغاية النَّبيلة، طارحًا ما سواها خلف بابه الذي أغلقه على نفسه، بهمَّةٍ عالية، وصبر لا يلين، من أجل أن يبني صروح علم باقيةً ما بقيتِ السِّموات والأرض، تحدِّثك عن إيمان هذا الرَّجل، وإخلاصه، ويقينه الدَّائم أنَّ أبواب الاجتهاد لن تُوصَدَ في وجه من أخلص لله نيَّته، وهكذا «استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرجه أحد، ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم. وقيل إنَّه دعا بمكَّةَ أن يُرزَقَ علمًا لم يسبقه إليه أحد، ولا يُؤخَذ إلا عنه، فرجع من حجِّه، ففُتِح عليه بالعروض»[6].

---

[4]- ينظر: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني: محمد أبو موسى، ص: 205-206.

[5]- إنباه الرواة: القفطي، ج1، ص: 380.

[6]- إنباه الرواة، القفطي، ج1، ص: 377.

وهذا رأس الأمر في قصَّة علم من علوم العربية جليل، صنعه الرَّجل على عينه لا عن مثال سابق قد احتذاه، ولا عن شيخ لقَّنه أصوله أو له رواه؛ وإنَّما بالسَّمع المجرَّد الممزوج بمشاعل الصَّبر والأناة والكدح والمثابرة والمجاهدة، حتَّى افترَّ له الأمر عن حقيقة عظيمة في علم العربية، لن تجد لها مثيلًا في لغة أخرى بهذا الإيقاع الدَّقيق، والتَّقسيم المحكم؛ بل لا يزال من أسرارها ما هو في علوم الغيب لمَّا تنله الأوهام، ولما تستكشف أخباره المغطاة بغشاوة من غموض، منشؤها حيرة تتقلَّب فيها الوجوه كلَّما تساءلت عن أسرار هذا العلم وشؤونه وشجونه[7].

ولم يصنع الخليل في علم النحو كتابًا مذكورًا، ولكنه صنع وراءه عقولًا متوهِّجة حملت رسالته وأدَّتها على وجهها الحق، بعد أن كانت مفرَّقةً لا تجمعها صحائف، وهذا ما صنعه سيبويه (ت180هـ) على وجه التحديد في إحياء علم الخليل[8]، إحياءً سَمَتْ به أنبلُ عاطفة من الوفاء لشيخه حتى دوَّنَ ما سمع، ووثَّقَ ما قرأ، ولكنَّ برَّه بشيخه لم يقعد به عند نقل آرائه حتى ترى النَّور، وتصبح كتابًا يسير مسير الركبان، يسمعه النَّاس، ويتعلَّمونه، ويرويه خلفٌ منهم عن سَلَفٍ بل خالف شيخه واجتهد ليستنبط شيئًا آخر يكون أيضًا نواة لاجتهاد جديد يبنى عليه، منتبذًا لعقله مكانًا قصيًّا يجنِّبه مغبَّة التَّقليد، أو إلقاء الرَّأي بلا عاصم يعصمه من الزَّلل.

ولك في صنيع ابن جنِّي(ت392هـ)، مثال يُحتَذى أيضًا؛ إذ صنع للنَّحو أصولًا على مذهب علماء الكلام والفقه[9] في طرائق الاستدلال والنَّظر، وقد كان يشعر بما يشعر به البشر في شيء كهذا؛ أي بوعورة الخوض في فيما أدلى به الآخرون بدلائهم، وأنَّه مرتقًى صعب دونه خرطُ القتاد، ولكنَّها صعوبة أثارت حميَّته ليجتهد ويضع طابعه وسمته ورسمه، من غير تجنٍّ ولا تجريح، ولا لجاج يمكن أن يفتح عليه منافذ الولوج فيما لا يدري صحيحه من سقيمه، على ما أرى وترى من آراء تمتلئ بها الرُّفوف من دعوات إلى (تجديد) لا يمتُّ إلى هذه الكلمة العظيمة بصلة قريبة، «إلا أنَّنا –مع هذا الذي رأيناه وسوَّغنا مرتكَبه– لا نسمحُ له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي طال بحثُها، وتقدَّم

---

[7]– ولكنه غموض محبَّب لم يقعد بالمخلصين من أهل العلم، ولك فيما صنعه الشَّيخ محمود شاكر رحمه الله مثال يُحتذَى؛ إذ أثار هذا الغموض في قلبه عشقًا ليعرف شيئًا عن سرِّ الدوائر العروضيَّة، فاجتهد والله حسيبه؛ ينظر: نمط صعب ونمط مخيف: محمود محمد شاكر، ص: 89 وما بعدها.

[8]– جاء في صدر، جـ1، ص: 8، من كتاب سيبويه: «وسمعت نصرًا يحكي عن أبيه قال: قال لي سيبويه حين أراد أن يضع كتابه: تعال حتى نتعاون على إحياء علم الخليل».

[9]– ينظر: الخصائص: جـ1، ص:1–2.

نظرها، وتتالت أواخر على أوائل، وأعجازًا على كلاكل، والقومُ الذين لا نشكُّ في أنَّ الله -سبحانه وتقدَّست أسماؤه- قد هداهم لهذا العلم الكريم، وأراهم وجه الحكمة في التَّرجيب له والتَّعظيم، وجعله ببركاتهم، وعلى أيدي طاعاتهم، خادمًا للكتاب المنزَّل، وكلام نبيِّه المرسل، وعونًا على فهمهما، ومعرفة ما أُمِر به، أو نُهِي عنه الثَّقلان منهما، إلَّا بعد أن يناهضه إتقانًا، ويثابته عرفانًا، ولا يخلدُ إلى سانح خاطره، ولا إلى نزوةٍ من نَزَوات تفكُّره. فإذا هو حذا على هذا المثال، وباشر بإنعام تصفُّحه أحناء الحال، أمضى الرَّأي فيما يريه الله منه، غيرَ معاز به، ولا غاض من السَّلف -رحمهم الله- في شيء منه»[10].

وهذا نصٌّ تربويٌّ عظيمٌ، يجب أن يُكتَبَ بماء الذهب، ويُعَلَّمَ لطلبةِ العلم؛ بل أن يأخذ المعلِّمُ بلبِّ طالبه وعقله ويده؛ ليجلِّي لما ما يختفي وراء اللفظ من خلق نبيل؛ حتَّى يعلِّمه طريقة العلماء في احترام متقدِّميهم، وتبجيل لغتهم؛ لينير له من ثَمَّ، المنهجَ السَّويَّ الذي يجب أن يتَّبعه المرءُ إذا ما همَّ بإضافة فرع، أو توضيح مسألة، عسى أن يكون هذا المنهج العريق روحًا يُنفَخُ في أجساد جيل العربية الحاضر، فينسل من أجداث التَّبعية والتَّقليد التي أوحت إلى الكثيرين زخرف القول غُرورًا.

وقد سقت ما تقدَّم حديثه؛ لأستظهر به على أنَّ الجرجانيَّ لم يكن نسيج وحده في هذا الذي نحن فيه؛ بل أنت واجد من ذلك صفحاتٍ في التُّراث مشرقةً تضارع صنيع عبد القاهر، الذي ركِبَ يمًا متلاطم الأمواج، هالت غيرَه معاطبُه وأهوالُه، وتوجَّس خِيفةً منها؛ ليصنعَ على عينه علمًا جديدًا انتزع جذوته من أصول النَّحْو العربيِّ، «معتمدًا على دلالات اللسان العربي، لأنَّ ذلك كلَّه مخبوء تحت ألفاظ هذا اللسان العربيِّ، ومستكنٌّ في نظم هذا اللسان العربيِّ، وهذا يكاد يكون أمرًا مسلَّمًا ببديهة النَّظر في شأن كلِّ لغة وتراثها. والذي لا يملك القدرة على استيعاب هذه الدَّلالات وعلى استشفاف خفاياها، غير قادر البتَّة على أن ينشئ منهجًا أدبيًّا لدراسة إرث هذه اللغة، في أي فرع من فروع هذا الإرث، إلَّا أن يكون الأمر كلُّه تبجُّحًا وزهوًا وغطرسةً وتغريرًا»[11]. (وقد يجشَمُ الهولَ المُحِبُّ المُغَرِّرُ).

والحقيقة أنَّ القلم جموح إذا أنت أرخيت له العنان، فربَّما بلغ القصد أو تجاوزه دون أن تعلم، ولاسيَّما إذا كان مغموسًا في تراث تجده -كلما أنعمت النَّظر فيه، وأخلصت النيَّة له- نسيجًا محكمًا، وبناءً متماسكًا، لا تملك إلا أن تتعجَّب من العقول التي نسجت أو بنت، ثمَّ لا تملك إلا أن تُقِرَّ بما أقرَّ به ابن جنِّي وآمنَ: أنَّ الأمر هداية من الله، ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الانعام90].

---

[10]- الخصائص: جـ1، ص: 190.

[11]- رسالة في الطَّريق إلى ثقافتنا: محمود شاكر، ص: 15.

ثانيًا: من أصول نظريَّة النَّظم في كتاب المقتصد:

لا يمكن لأيِّ نظريَّة مهما علا كعب صاحبها، أن تنشأ دفعة واحدة من فكر مجرَّد؛ فذلك ضرب من المبالغة واللغو، لا يصحُّ في علم، ولا يجري في وهم؛ لأنَّ التَّكامل في كلِّ علم، مفتقر بالضَّرورة إلى أن يُغرَسَ في عقول أصحابه ونفوسهم غرسًا صحيحًا، ويستقي منها وابلًا أو طلًا يجعله يؤتي أُكُله كلَّ حين، وهذا بيِّنٌ لك فيما تقرأ وتسمع من نظريَّات حديثة تملأ الآفاق سمعتها زمنًا، ثمَّ يأفل نجمها وتُجتَثُّ؛ لتنشأ على ركامها المعرفيِّ نظرية أخرى، وهكذا دواليك؛ ولا يظننَّ ظانٌّ أنَّي أبحث عن سبيل أنسخ به ما سوى التُّراث العربيِّ، فليس هذا بمقصود؛ فلكلِّ لغة سمات وخصائصُ تميزُها، وما يميز هذه اللغة، أنَّها مشرَّفة بهدي إلهيٍّ كما حدَّثك ابن جنِّي من قبلُ، وكفى بما حدَّثَ مقنعًا ومفازًا؛ ويقتضي الأمر ههنا الإشارة إلى أنَّ الورقة ستكتفي بنظريَّة النَّظم بوصفها ذروة البحث البلاغيِّ وسنامه، ولأنَّها من إنجازات هذا العقل الألمعي الذي أضفي على كتاب الفارسي من حسِّه الوهاج «ما يكشف عنه ظلمة الإشكال، ويفيض عليه نور البيان»[12]. فلها (الورقة) في هذه الصَّلة لمساتٌ بلاغيَّة في هذا الكتاب تسوقها على سبيل الإيجاز والاختصار:

اللَّمسةُ الأولى: التَّأليف بين الكلام:

ويقدح زنادها اعتراضٌ من أبي عليٍّ على فكرة (التَّأليف بين الكلام)[13]، زادها الجرجانيُّ إيضاحًا وتبيينًا؛ فـ «قوله: (يأتلف) حقيقته بأن تقع الألفة بين الجزأين. وإنَّما قال: (يأتلف من ثلاثة أشياء) ولم يقل: الكلام ثلاثة أشياء، على ما جرت عادة كثير من المتقدِّمين»[14]. ولعلَّ سيبويه أولُ من قُصِدَ مِنْ أولئك المتقدِّمين؛ لأنَّ الكلام بمفهومه: «اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل»[15].

ويهمُّنا ههنا أن نفهم كيف بدأ الرَّجل يتنبَّأ بميلاد وشيك لنظريَّة النَّظم فيما بعد، أو كيف استثمر هذه الإشارات وبنى عليها وفرَّع منها أصولًا لعلم آخر، وهو علم المعاني الذي انتقاه –على ما قال في نصِّه؛ مفتاح هذه الورقة– من علم النَّحو، واستصفاه منه؛ وقد وقف عبد القاهر عند لفظة التَّأليف، فقلَّبها على وجوهها تقليبًا مبنيًّا على إحساس مؤكَّد أن هذه اللفظة سيكون لها شأن عظيم فيما بعد، أو لنقل: ستكون ظهيرة لفكرة كبرى، وعمدة من عمدها أصيلة؛ فـ «لو قلت: [على وفق تعبيره] خرج قام، أو قتل

---

[12]– المقتصد: م1، ص: 68.

[13]– ينظر: المصدر نفسه: م1، ص: 68. قال أبو علي: «الكلام يأتلف من ثلاثة أشياء: اسمٍ وفعلٍ وحرفٍ».

[14]– المصدر نفسه: م1، ص: 68.

[15]– الكتاب: ج1، ص: 12.

ضرب، **لم يكن كلامًا**، لأجل أن الفعل خبر، وإذا جعلت الخبر مسندًا إلى الخبر، **كنت تاركًا للصَّواب**»[16].

وبيِّنٌ أنَّ الجرجانيَّ لا يتكلَّم على شيء سوى المعنى؛ فهو ملاك النَّظم وعماده، وهذا واضح من اعتراضه بعد الفارسيِّ على التَّعريف الذي خلا من لفظة التَّأليف؛ لأنَّ التَّأليف، أو ما عبَّر عنه في دلائل الإعجاز بـ (الضَّم)، لا يكون بين الألفاظ كيفما جاء واتَّفق؛ بل هو أمر يفرضه المعنى، وتقتضيه شؤونه وشجونه؛ إذ «لا يصحُّ أن يُرَادَ به النَّطق باللَّفظة بعد اللَّفظة، من غير اتِّصال يكون بين معنييهما، لأنَّه لو جاز أن يكون لمجرَّد ضمِّ اللَّفظ إلى اللَّفظ **تأثير في الفصاحة**، لكان ينبغي إذا قيل: (ضحك، خرج) أن يحدث في ضمِّ (خرج) إلى (ضحك) فصاحة! وإذا بطل ذلك، لم يبقَ إلا أن يكون المعنى في ضمِّ الكلمة إلى الكلمة توخِّي معنى من معاني النَّحو فيما بينها»[17].

ويبقى في هذين النَّصين، بين المقتصد والدَّلائل، ما لا يتمُّ البيان بشيء سواه؛ فليس في ذلك الجيل العظيم مَنْ يرمي الكلام سدًى غير محصَّل، أو يقمشُهُ قمشًا من غير تأمُّلٍ وتأويلٍ يمكن أن يسفرَ عن حقيقة نافعة؛ ففي النَّصين دلالة بعيدة على التَّكامل الذي نحن بسبيله؛ إذ أشار في نصِّ المقتصد إلى ما تصدُقُ عليه صفة الكلام، وهو الذي حقَّق شروط صحَّة الإسناد، وقويت بين ألفاظه عرى الانسجام والتَّماسك حتَّى لا تنبو كلمة بموضعها، أو يند لفظ عن مكان اختير ليكون له؛ وكأنَّه في هذا يتكلَّم على الكلام المستقيم فقط، دونما تجاوز إلى مراتبَ أعلى من الحسن والجمال التَّركيبي، ولكنَّه في نصِّ الدَّلائل جعل الاستقامة أو الصَّواب أساسًا للفصاحة ورتبة أوليَّة لا يمكن تجاوزها إذا ما المرء هَمَّ بالتَّعبير عن معاني القلوب تعبيرًا صحيحًا جميلًا. والصَّحيح غير الجميل، والجميلُ يُشترَط فيه أن يكون صحيحًا، والعكس لا يصدُقُ على مثل هذا؛ هذه أولى اللمسات البلاغيَّة في كتاب المقتصد، عرضتها بوجه مقتصد أيضًا؛ لأن الغرض الاجتهادُ في بيان وجوه التَّكامل والاتِّصال بين النَّظريَّتين ما أمكن، وفيما يأتي لمسة أجلى وأظهر.

اللَّمسةُ الثَّانية: الإعراب بين اللفظ والمعنى:

ليس الكلام على اللفظ والمعنى ببديعٍ من القول ولا طريف ولا جديد، ولكنَّك تعجب معي إذا وجدت مصدرًا من مصادر النَّحو يقترب من هذه القضية اقترابًا دانيًا، حتَّى ليشعر المرء أنَّه حديث في قلب قضيَّة النَّقد، وهذا يفضي بنا إلى حقيقة مؤدَّاها أنَّ

[16]- المقتصد: م1، ص: 69.
[17]- دلائل الإعجاز: ص: 394.

الجرجانيَّ كان يشرح كتاب أبي عليٍّ، وقضيَّة (الدلائل) في ذهنه حاضرة، أو لنقل على وجه الدِّقة: كان يحسُّ بها إحساسًا مبهما نوعًا ما؛ ولهذا تركها حتَّى تتخمَّر في ذهنه وتؤتي أكلها بنظريَّة شامخة تضرب أصولها في التُّراث النَّحْوي، الذي لم يزل بحاجة إلى قراءات أعمق، تزيل الثَّرى عن نبعه المتدفِّق من أعماق الفطرة الإنسانيَّة العربيَّة.

والآن نستعرض من النُّصوص ما يكشف وجه هذه الفكرة بوجه تدريجيٍّ حتَّى ننتهيَ إلى ما حدَّثتك عنه آنفًا؛ أي الحديث الذي يقترب من قضيَّة النَّقد؛ فالإعراب عند الجرجاني شيء يرجع إلى المعنى، ويتصرَّف بتصرُّفه، ولا يرجع إلى شيء سوى ذلك، قال: «اعلمْ أنَّ معنى الإعرابِ على وجهينِ: أحدُهما: أنْ يكونَ من قولِهم: أعربَ عن نفسِهِ، **إذا بيَّنَ ما في ضميرِهِ وأوضحَهُ لأنَّ حقيقةَ الإعرابِ إيضاحُ المعاني**.. والوجهُ الثَّاني أن يكون منقولًا من قولهم: عَرِبَتْ مَعِدَتُهُ، إذا فَسَدَتْ، فكأنَّ المعنى في الإعراب إزالةُ الفساد ورفعُ الإبهام»[18].

والثاني من الوجهين متَّفق عليه، أمَّا الأوَّل ففيه بين النُّحاة اختلاف[19]، والجرجانيُّ يذكر الثَّاني؛ ليكتمل الشَّرح، ويُستوفَى البيان، وتتوضَّح المسألة، ولكنَّه بالأوَّل أكثر احتفاء واحتفالًا؛ لأنَّه جعله شعبة قريبة من خوالج النَّفس، ولطيف المشاعر، ومكنون الضمائر، يَبِيْنُ عنها، ويكشف ما غاب منها أو شرد؛ ولهذا كلِّه عقَّب على هذا النَّصِّ بكلمة أخرى تثبت ما نحن بسبيله عندما قال: «وبعدُ، فإنَّ الإعرابَ في الحقيقةِ معنًى لا لفظٌ»[20].

وهذا هو قلب قضيَّة دلائل الإعجاز أينما قلَّبت النَّظر في كتابه، فليس من ورقة تخلو من تكرار هذه المسألة[21]؛ بل من الإلحاح الشَّديد على أنَّ القضيَّة قضيَّة معنى، وليست الألفاظ إلا دليلًا عليها، أو علامات تهدي إلى ما تحتويه الأنفس، وتضمره القلوب، وعلى هذا الأصل الوجدانيِّ أدار قضيَّته الكبيرة في فروق الكلام ووجوهه؛ فليس من كلام تقدَّم الخبر فيه على المبتدأ، إلا ليحمل صورًا ومعانيَ وأطيافًا جديدة غير التي حملتها الجملة الأصل، وليس من كلام جرى على سنَّة الحذف إلا ليؤدِّي ما لا يؤدِّيه الذِّكر من صور وأحوال، وهلمَّ جرًّا في خصائص التَّركيب الأخرى، فلو راقبتَ منشئًا للكلام عارفًا بشؤونه، أو راقبتَ نفسَك، لوجدت ذلك حقيقة صادقة لا يشوبها ريبٌ ولا يخالطها تردُّد.

---

[18] المقتصد: م1، ص: 97-98.

[19] ينظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفيه ابن مالكت 672هـ، المراديت، 749هـ، جـ1، ص: 296. همع الهوامع: السُّيوطيت، ج1،911هـ، ص: 53-54؛ وههنا جُمِعَت جُلُّ الآراء في هذه المسألة بما يغني عن الإحالة إلى ما سوى هذين المصدرين.

[20] المقتصد: م1، ص: 98.

[21] ينظر: دلائل الإعجاز، ص: 43/49/53-54/56 مثالًا.

والمهمُّ أنَّ الجرجاني في كتاب المقتصد، كان يشرح ويوضِّح وبصرُهُ شاخصٌ إلى شيء آخر هدته إليه قراءة الشَّرح والتَّوضيح، فكان على مرمى خطوات قِصارٍ من الكلام على قضيَّة النَّظم بالمفهوم الذي جاء في دلائل الإعجاز؛ لأنَّنا عندما نقرأ في مصدرٍ نحويٍّ مقولتَه: «**ومن المحالِ أَنْ يُغيِّرَ اللَّفظُ لغيرِ المعنى**»[22]، ندرك إدراكًا واضحًا أنَّه ينوي الكلام على شيء جديد، تسدُّ منافذ القول إليه في هذا الموضع طبيعةُ الموضوع الذي نذَرَ الرَّجلُ له نفسه ووقته؛ ولهذا عندما شرع يكتب فصول الدلائل، قال عُقَيْبَ النَّص الذي بدأتْ منه هذه الورقة: «**وليس يتأتَّى لي أن أعلمك من أوَّل الأمر في ذلك آخرَه، وأن أسميَ لك الفصول التي في نيَّتي أن أحرِّرها بمشيئة الله عزَّ وجلَّ، حتى تكون على علم بها قبل موردها عليك. فاعملْ على أن ههنا فصولًا يجيء بعضها في إثر بعض...**»[23].

فليس من العقل والمنطق أن تُولَدَ النيَّة في شأن -مهما عظم أو صغر- من فكر مجرِّد؛ فإذا صحَّ ذلك -وهو صحيح بلا شكٍّ- فالأمر في قضايا العلم، وفي العقول المخلصة المؤمنة أكثر حساسيَّة، وأحرص على تحرِّي الأمانة وتوخِّي الصواب. يضاف إلى ذلك أنَّنا عندما نذهب إلى ما وراء اللغة، وما وراء (النِّيَّة)، سنجد أنَّ اللفظ ههنا ينمُّ على شيء جليل في تراث عبد القاهر؛ أي إنَّه بدأ تحرير أبوابه والأمر واضح في ذهنه لا يحتاج إلى طويل مكابدة أو عناء، ثم يأتيك من يدَّعي بغير علم أنَّ أبواب الكتاب مفككة ومشعَّثة تحتاج إلى مراجعة تصلح ما جاء في بنيتها من خلل منهجيٍّ عويص[24]، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

وهذه أيضًا نُتَفٌ من هذه اللمسة البلاغيَّة العالية، ربَّما أغنت عن سواها في هذا المقام، وأثبتت أنَّ الرجل قد تنبَّأ بميلاد قريب لنظريَّة ستكون فيما بعد عَلَمًا على نجابته وإخلاصه، وظهورُها في دلائل الإعجاز بهذا التَّرتيب العقليِّ المنسجم -هذا إذا دقَّق المرء في صلة الباب بما يسبقه ويلحقه -يؤكِّد أنَّ فكرة النَّظم بدأت تنمو في ذهنه من لدنْ كتاب المقتصد، ومن هناك بدأ يؤسِّس لانتقاء خالص هذا العلم ولبِّه كما قال؛ ليضع للعربيَّة علمًا آخر مبنيًّا على الأوَّل، ومستندًا إليه؛ ليكتمل العلمان في مواجهة الشِّعر والقرآن العظيم بقراءة مثمرة ومفيدة.

---

[22]- المقتصد: م1، ص: 108.

[23]- دلائل الإعجاز: ص: 42.

[24]- ينظر: النَّقد العربي القديم والمنهجيَّة: عبد القادر القط، مجلة فصول، م1، ع3، ص: 20.

اللَّمسةُ الثَّالثة: البسيط والمركَّب، أو المعنى النَّفسي/لمحةٌ إلى الفكر الأشعريِّ في المقتصد:

إنَّ الحديث عن عبد القاهر بوصفه نحويًّا خالصًا هو بالضَّرورة –كما يقول محقِّق الكتاب– حديثٌ عن كتاب المقتصد[25]؛ ولهذا فإنَّ إشاراتٍ من هذا القبيل ستكتسب بعدًا علميًّا دقيقًا إذا ما نظرنا إلى مضامين الكتاب ومقاصده ومنهجه. وإذا راود معترضًا الشَّكُّ بجدواها على تحقيق هذه الفرضيَّة، الذاهبة إلى تأصيل النَّظم في هذا الكتاب؛ فإنَّ ههنا ما يؤكِّد المقصد، ويفيض عليه من نور البيان والتبيين؛ إذ ارتبطت نظريَّة النظم بإعجاز القرآن الكريم، وقُرِنَت به، وصار لهذا الموضوع حواش وزيادات أدخلته جدال الأشعريَّة والاعتزال، ومن يتصفَّح الدَّلائل يجد الأمر ظاهرًا لا يحتاج إلى تفتيش؛ بل ذهب الشَّيخ شاكر إلى أنَّ دلائل الإعجاز من المبدأ إلى المنتهى هو نقضٌ لأقوال المعتزلة في كثير من المسائل[26].

ولعلَّ من أكبر القضايا التي أدار عليها الجرجانيُّ القول في (دلائل الإعجاز)، قضيَّة ترتيب المعاني في النفس[27]؛ وهي القضيَّة التي تنابذت عليها العقول في مسألة خلق القرآن، فأراد الأشاعرة أن ينقضوا ما ركن إليه المعتزلة، الذين ذهبوا إلى أنَّ كلام الله سبحانه «حروف منظومة وأصوات مقطَّعة»[28]، ومادام كذلك عند المعتزلة، فقد دخله الزَّمن، وإن دخله الزَّمن، دخلته الحوادث؛ ولهذا تجدهم يرتضون القول: «في أنَّ القرآن مخلوق محدثٌ مفعول»[29]. وهذا ما كزَّت من أسماع الأشاعرة، فجبُّوا ما ارتضاه الفريقُ الأوَّل، فجاؤوا بفكرة الكلام النَّفسيِّ القديم؛ ليخرجوا العصر من شكوك مضنية كادت أن تُدخِلَ العصر في ظلمات لا كاشفَ لها إلا الله سبحانه؛ وأصلُ هذه القضيَّة ومنشؤها فكرة المركَّب والبسيط من الكلام، التي استطاع فيها الجرجانيُّ أن يصل إلى تحقيق المسألة بأنَّها نظم للمعاني على قضيَّة العقل، وأنَّ ترتيب الكلام في الذِّكر، يتبع ترتيبه في النَّفس والفِكر، ومن هنا دخلت حيِّزَ البلاغة والكلام المكتوب، لتكون علوم العربية – لمن أخلص النَّظر– خاضعة لهذا السُّلطان، ومنه تستمدُّ وهجها.

---

[25]– ينظر: المقتصد: م1، ص: 33.

[26]– ينظر: مقدمة الشَّيخ شاكر لكتاب الدَّلائل: د.ص.

[27]– ينظر: دلائل الإعجاز: ص: 49–50–51–52/54/62/64 مثالًا.

[28]– ينظر: المغني في أبواب التَّوحيد والعدل خلق القرآن: القاضي عبد الجبار، جـ7، 415هـ، ص: 3؛ وكذلك: مقالات الإسلاميِّين: لأبي الحسن الأشعريت، جـ2، 324هـ، ص: 273.

[29]– ينظر: المغني في أبواب التَّوحيد والعدل خلق القرآن: القاضي عبد الجبَّار، جـ7، ص: 3.

وهذه قضيَّة عريضة جدًّا، يصعب لملمة حواشيها بورقة تقصد الإيجاز، أو هو مفروض عليها؛ ولهذا نقف ههنا على نصٍّ لعبد القاهر في كتاب المقتصد؛ لنجد أين تضرب جذور هذه المسألة؟ وأين يقع صداها في دلائل الإعجاز؟.

وقد تناول الرَّجل قضيَّة المركَّب والبسيط في مسألة فساد دخول الجرِّ على الفعل، قال: «وعلل ذلك كثيرةٌ، فأقربها أنَّ الفعل خبر، والخبرُ لا يكون إلَّا نكرةً، أَلَا ترى أَنَّه إذا وُجِدَ في الكلام تعلَّقت به الفائدةُ، فإذا قلتَ: **ضربَ زيدٌ عمرًا يوم الجمعة أَمام بكرٍ، لمْ يُسْتَفَدْ من جميع ذلك شيءٌ غير ضربَ**، لأَنَّ هذه الأشياءَ معلومةٌ، وإِنَّما الذي لا يُعْلَمُ التباسُ الفعل بها..»[30].

وهو يريد في هذا أنَّ الفعل أصل الفائدة، وما سواه كلّه مفرَّع عنه، ومبنيٌّ عليه، وتابعٌ له؛ ولهذا يكون الكلام معنى واحدًا لا عدَّة معان، وهذا هو معنى التَّعليق الذي تحدَّث عنه طويلًا في دلائل الإعجاز، وأضع بين يديك نصَّه في هذا الأخير، ليكون إلى جوار نصِّ المقتصد، يشدُّ أزرَ ما نحن فيه. قال: «واعلم أَنَّ مثلَ واضع الكلام مثلُ منْ يأخذ قطعًا من الذَّهب أَو الفضَّة فيذيب بعضَها في بعضٍ حتَّى تصير قطعة واحدة. وذلك أَنَّكَ إذا قلتَ: (ضرَبَ زَيدٌ عمرًا يوم الجمعة ضربًا شديدًا تأديبًا له)، فإِنَّكَ تحصل من مجموع هذه الكلم كُلِّها على مفهومٍ، هو معنى واحدٌ لا عدَّةُ معانٍ، كما يتوهَّمُهُ النَّاس. وذلك لأَنَّك لم تأتِ بهذه الكلم لتُفِيْدَه أَنْفُسَ معانيها، وإِنَّما جئْتَ بها لتُفِيدَهُ وجوه التَّعلُّق التي بين الفعل الذي هو (ضربَ)، وبين ما عمِلَ فيهِ، والأحكام التي هي محصول التَّعلُّق»[31].

ولعلَّك تجد ما أنا واجد من تواشج بين النَّصين؛ بل مضارعةً في المثال الذي اتخذه الجرجانيُّ ظهيرًا ليثبت أنَّ الكلام على ما ذَكَرَ؛ أي هو بسيط وليس بمركَّب من عدة معانٍ، وبهذا يستحيل أن يدخله الزَّمن بالمفهوم الأشعريِّ الأثير، ويستحيل مع ذلك أن يكون النَّظم الذي تتَّفق عليه العقول نظمًا للألفاظ من حيث هي كلم مفردة مجرَّدة، «أتقول: إنَّ ألفاظها اتَّحدت فصارت لفظة واحدة؟ أم تقول: إنَّ معانيها اتَّحدت فصارت الألفاظ من أجل ذلك كأَنَّها لفظة واحدة؟ فإن كنت لا تشكُّ أَنَّ الاتحاد الذي تراه هو في المعاني، إذ كان من فساد العقل، ومن الذهاب في الخَبْل، أن يتوهَّم متوهِّم أَنَّ الألفاظ يندمج بعضها

[30]- المقتصد: م1، ص: 171؛ والفعل ضرب ورد في الأصل بغير أقواسٍ.
[31]- دلائلُ الإعجازِ: ص: 412-413.

في بعض حتَّى تصير لفظة واحدة فقد أراك ذلك، إن لم تكابر عقلك، أنَّ (النظم) يكون في معاني الكلم دون ألفاظها، وأنَّ نظمها هو توخِّي معاني النَّحو فيها»[32].

وقد كان ينقصُ نصَّ المقتصد أن تُذكَرَ فيه لفظة معاني النَّحو فحسب، وهذا معنى ما ذكرته من قبل من أنَّ الرَّجل كان مرمى خُطُوات قصار من الحديث عن معاني النَّحو ،والحديث عن النَّظم بالمفهوم الذي جاء في دلائل الإعجاز، ولكنَّه كان يتحدَّث في مثال المقتصد عن (التَّعليق)، وفهمُ قضيَّة الدَّلائل يُثبت للمتأمِّل الصَّبور أنَّ التعليق والنَّظم وجهانِ لا يفترقان.

اللَّمسةُ الرابعة: علاماتُ الإعرابِ علامات أحوالٍ وخواطرَ:

ليست علامة الإعراب ترفًا في نهايات الكلام زائدًا، أو شيئًا يصحُّ الاستغناء عنه؛ بل هي دلائل على ما تكنُّه الضَّمائر، وأمارات على ما تحتويه الصُّدور؛ ولهذا ولغيره تجد ما جاء به أولو التَّجديد ضربًا من العبث، ما ضربوه إلا جدلًا وتغريرًا[33]. وأضع بين يديك نصَّ الجرجانيِّ؛ لتبين دقائق التَّفكير في عقليَّة هذا الرَّجل، وكيف نظر إلى اللغة نظرة محفوفة بوهج عقليٍّ نقيٍّ يعيدها إلى مستقرِّها الوجدانيِّ العميق، قال: «**لمَّا وجدوا هذه الحركاتِ قد أَتَتْ دالَّةً على معانٍ، وصار اختلافها عَلَمًا لاختلاف المعاني كالفاعليَّة والمفعوليَّة والإضافة، جعلوا لها في هذا الحدِّ أسماءً مفردةً لأنَّها قد تغيَّرت عن أحوالها وصارت تُذكَر لا لتفاد أنفسها، ويقع اللَّفظ بها، بل ليدلَّ ذكرُها على أحوالٍ ومعانٍ، فغيَّروا الاسم لتغيُّر المعنى**»[34] وهذه كلمة جيِّدة جدًّا، تذكِّر المرء بما نصَّ عليه الرَّجل في صدر أسرار البلاغة، عندما ذكر أنَّ المراتب والمنازل، وأحكام اللسان العربيِّ جملة، مضبوطةٌ بأصل عقليٍّ عميق وراء التَّركيب العربيِّ، وهو الذي يجبُ أن تجولَ النَّفس القاصدة للتَّحليل والتَّأمُّل خلاله، ويُعْتَصَر الفكر فيه؛ لأنَّها منتظمة على قضيَّة العقل، وترجع أصولها إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده على وفق تعبيره[35].

---

[32] المصدر نفسه: ص: 414-415.

[33] يقول د. إبراهيم أنيس: «**فليست حركات الإعراب في رأيي، عنصرًا من عناصرِ البنيةِ في الكلماتِ، وليست دلائلَ على المعاني كما يظنُّ النُّحاة؛ بل إنَّ الأصلَ في كلِّ كلمةٍ هو سكونُ آخرِهَا.. وتبقى معَ هذا أو رغم هذا، واضحةَ الصِّيغةِ لم تفقدْ من معالمها شيئًا**»، من أسرار اللغة، ص: 242.

[34] المقتصد: م1، ص: 101.

[35] ينظر: أسرار البلاغة: ص: 6/5؛ عندما ذكر «أنَّ المعنى الذي له كانت هذه الكلمُ بيتَ شعرٍ أو فصلَ خطابٍ، هو ترتيبُها على طريقة معلومة، وحصولُها على صورة من التَّأليف مخصوصة. وهذا الحكمُ أعني الاختصاصَ في التَّرتيبِ يقع في الألفاظ مرتَّبًا على المعاني المرتَّبة في النَّفس، المنتظمة فيها على قضيَّة العقل. ولا يُتَصوَّر في الألفاظِ وجوبُ تقديمٍ وتأخيرٍ، وتخصُّص في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وُضِعَتِ المراتبُ والمنازلُ في الجمل المركَّبة، وأقسام الكلام المدوَّنة، فقيل: من حقّ هذا أنْ يسبقَ ذلكَ، ومن حقّ ما ههنا أن يقع هناكَ، كما قيلَ في المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل،

وهذا يعني فيما يعنيه، أنَّ النَّحو العربيَّ هو صوب العقول، والجامع لثمارها؛ لأنَّه بحث دقيق في طبع الإنسان العربي وتفكيره، وضوابط هذا التَّفكير؛ «إنَّه نظر في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وتعتاده.. أو تأباه وتذهب عنه، وتستغني بغيره»[36]. وهذا دليل أكيد على أنَّ حركة الإعراب تجري على سمت ما تجري عليه طبيعة الأعراب الأوائل، وهذا جوهر النَّظام اللغوي المنتزع من طبائع القوم، ومنه استنبط النَّحاة ما تقرَّرَ من قواعد تنضبط بها اللغة[37].

نعم تجاوز الجرجانيُّ ما ألمح إليه لمحًا في كتاب المقتصد؛ لأنَّه ولَّى وجهه شطر قبلة أخرى بناها على الأولى، أو هي التي أخذت بيده إلى تلك، ولكنَّه أحسَّ بالثانية إحساسًا تتبئُنا به أمثال هذه النُّصوص التي لا يجهد المرء حتَّى يجد لها ضريبًا في كتاب الدَّلائل، ولنا فيما ساقه على «أنَّ أصلَ الأسماء الإعرابُ، وأصلَ الأفعال والحروف البناءُ لأجلِ أنَّ الاسمَ يكونُ فيه **معانٍ تُوجِبُ الاختلافَ كالفاعليَّة والمفعوليَّة والإضافة فلو لم تأتِ بالاختلاف لم يُفصَلْ بين المقاصد**»[38]، دليل جديد وجيِّد على حضور الحديث عن معاني النَّحو في هذا الكتاب الجليل (المقتصد)، وما علامات الإعراب إلا آيات بيِّنات تفصِلُ في الكلام بين مقاصد المتكلِّمين، وما تغمغم به ضمائرهم وأحوالهم، ولولا هذا الاختلاف وموجباته لانتشرت جهات الكلام وتشارت ضوابط اللغة التي هي ضوابط التَّفكير، ولصار الكلام حشوًا مكيلًا يُرسَل على غير بصيرة وبيان، وهذا قريب جدًّا ممَّا رواه أبو الفتح عثمان بن جني عندما ذكر: «وسألت يومًا أبا عبد اللّه محمد بن العسَّاف العُقَيليّ الجُوثيِ، التَّميميّ –تميم جُوثة– فقلتُ له: كيف تقول: ضربت أخوك؟ فقال أقول: ضربت أخاك. فأدرته على الرَّفع، فأبى، وقال: لا أقول: أخوك أبدًا. قلت: فكيف تقول: ضربني أخوك، فرفع. فقلت: ألست زعمت أنَّك لا تقول: أخوك أبدًا؟ فقال أيشٍ هذا! اختلفت جهتا الكلام. فهل هذا إلا أدلُّ شيء على تأمُّلهم مواقعَ الكلام، وإعطائهم إيَّاه في كلِّ موضع حقَّه، وحِصَّتَه من الإعراب، عن مِيزة، وعلى بصيرة، وأنَّه ليس استرسالًا ولا ترجيمًا»[39]؛

حتَّى حُظِرَ في جنس من الكلم بعينِهِ أن يقعَ إلَّا سابقًا، وفي آخرَ أنْ يوجَدَ إلَّا مبنيًّا على غيرِهِ وبه لاحقًا.. إلى غيرها من الأحكام. فإذا رأيتَ البصيرَ بجواهرِ الكلامِ يستحسنُ شعرًا أو يستجيدُ نثرًا، ثمَّ يجعلُ الثَّناءَ عليه من حيثُ اللَّفظُ فيقولُ: حلوٌ رشيقٌ، وحسنٌ أنيقٌ، وعذبٌ سائغٌ، وخلوبٌ رائعٌ، فاعلمْ أنَّه ليسَ ينبئُكَ عن أحوال ترجعُ إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللُّغويِّ، بل إلى أمرٍ يقعُ من المرءِ في فؤادِهِ، وفضلٍ يقتدحُهُ العقلُ من زناده».

[36]– المقابسات: لأبي حيان التوحيدي، ص: 170.

[37]– ينظر: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص: 66.

[38]– المقتصد: م1، ص: 108.

[39]– الخصائص: ج1، ص: 76.

وجهاتُ الكلام التي يتحدَّث عنها أبو الفتح، هي ذاتها المعاني التي توجب الاختلاف في حديث عبد القاهر، وهنا تأتي علامات الإعراب لتفصلَ بين هذه الجهات والمقاصد، حتَّى لا يكون الكلام شرجًا واحدًا لا يُعرَفُ فيه فاعل من مفعول.

وقد ذكرت في رأس هذه الصَّفحة، أنَّ الجرجاني تجاوز هذه اللمحَ التي أزالت له الثَّرى عن نبع متوهِّج جديد، فذهب إلى آفاقٍ أوسعَ وأرحبَ بناها على تلك؛ ليبحث في الأسلوب وكيفيَّة تركيبه وترتيبه، وخصائصه وسماته التي هي سمات صاحب الأسلوب، وقطعة من وجدانه ولسانه- فضرب لذلك أبوابًا على تقديم الكلام وتأخيره، وتعريفه وتنكيره، وإضماره وإظهاره، وإطلاقه وتقييده، وتأكيده، وغيرها من الأبواب التي صارت تعرف باسم (علم المعاني)، وهي معاني النَّفس الإنسانيَّة، وخطٌّ لتمثال صاحبها وطريقة تفكيره.

لقد تبيَّن لعبد القاهر -وهو يعيد قراءة أسلافه فيما صنعت عقولهم- أنَّ الإخلاص والصَّبر على تقليب المسائل والأفكار من غير الممكن بمنطق الأشياء ألا يسفرَ عن حقيقة جديدة؛ ولهذا أدمن قرع الأبواب حتَّى تفتَّحت له مشرقة عن نور واسع يهتدي به المرء كلَّما أراد أن يبين عن نفسه ببيان جميل موافق لفطرة العربيِّ الأوَّل، أو أراد أن يفقه كلام ربِّه فقهًا دقيقًا، وتلك هي الفضيلة التَّامة، والشرف العالي، والسُّؤدد الباقي يدَ الدهر، الذي يبعد المرء عن الرَّأي المدخول، والفكرة الفاسدة التي لا تسمن ولا تغني من جوع؛ بل تحل صاحبها محلَّ الكرامة، ومقعد الصِّدق والإخلاص، وتقرِّبه من نور اليقين زُلفى.

ولهذا شعر الرَّجل بلذَّة الكشف، أو لذَّة الظَّفر بالمراد، فوصف صنيعه في دلائله بأنَّه الخالص واللبُّ، وأنَّه أناسي العيون وحبات القلوب، وكأنَّه صوفي أُزيلَت له الحجب، فوقع قلبه على ما لم تقع عليه قلوب الآخرين وأبصارهم، «ومن المركوز في الطَّبع أنَّ الشَّيء إذا نِيل بعد الطَّلب له والاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزيَّة أولى، فكان موقعه من النَّفس أجل وألطف، وكانت به أضنَّ وأشغف، ولذلك ضُرِبَ المثل لكلِّ ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ»[40].

وكأنَّ الجرجاني عندما كتب نصَّه الذي انطلقت من وهجه هذه الورقة، واجتبى له الوصف بحبَّة القلب وإنسان العين- كان ينظر إلى كلام الجاحظ (ت255هـ) عن فضيلة التَّأتي والتَّهدي وإدمان التَّأمُّل والنَّظر، فجعل لطول التَّأمُّل المفضي إلى أسباب الكشف، فضيلةً ولذةً تفوق ما سواها من لذات مهما شرفت وعلت، وعزَّت ومنُعت، فـ «أين تقع لذَّة البهيمة بالعلوفة، ولذة السَّبُع بلطم الدَّم وأكلِ اللَّحم، من سرور الظَّفر بالأعداء؛ ومن

[40]- أسرار البلاغة: ص: 139.

انفتاح باب العلم بعد إدمان القرع؟ وأين ذلك من سرور السُّودد ومن عزِّ الرياسة؟ وأين ذلك من حال النبوَّة والخلافة، ومن عزِّهما وساطع نورهما»[41].

وبعد، فما من شيء أمتع وأجل من أن تقرأ الفكرة بعد استوائها ونضجها، قراءة من يتبعُ المجرى حتى يصلَ إلى نبعه الذي منه انبجس[42]؛ لأنه إذا كان لفهم الفكرة، وهي خالصةٌ مصفاةٌ، لذةٌ وقيمةٌ، فإنَّ للبحث في أصولها ومصادرها التي أنبتتها حتى استوت على سوقها مذاقًا آخرَ، ولذةً أكرم من الأولى وأغلى وأعلى، وهذا هو كفاح العقول الصَّادقة التي كان أربابها «يهتمون اهتمامًا ببيان الخطوات التي سلكوها في استنباط حقائق العلوم، وكانوا يزاوجون في إعداد الجيل الذي يخلفهم بين أمرين: الأوَّل: تعليم أصول العلم، والثاني: بيان كيف استُخرِجت هذه الأصول، والخطوات التي سلكوها، وكأنَّهم يعلمون تلاميذهم العلم، ويعلمونهم أيضًا علم صناعة العلم، حتى يكون هؤلاء التلاميذ متمِّمين لمسيرتهم وماضين على دربهم، وحتَّى يستوعبوا كلَّ تجاربهم، ويخوضوا وراءهم كلَّ غمرة، ويجدوا ما وجدوا من المشقَّة، على هذا الدَّرب الشَّريف»[43]، لقد حاولت هذه الورقة أن تجتهد في البحث عن مصدر عريق من مصادر الدَّرس البلاغي متمثلًا بنظريَّة عبد القاهر التي لم تزل بحاجة إلى قراءات أخرى تخرج نصوصها من مخابئها القديمة التي أطلَّت منها النَّظرية بحلَّتها القشيبة، وعليه فالبحث قاصد إثارة الأسئلة ومبتغ كشفَ الحجبِ عن منهج الأوائل في استنباط العلوم ولهذا فما توصَّل إليه البحثُ أقرب إلى التَّوصيات منه إلى النَّتائج وفيما يلي بيان ذلك:

- لا يمكن لأي علم، سواء أكان عربيًّا أم غير عربيٍّ، أن ينمو ويزدهر بقراءة تُسقِطُ عليه منهجًا غريبًا بأدواته وآلاته، ثمَّ تنتظر أن تتكشف لك القراءة عن حقيقة علمية مفيدة، يمكن أن تخطو بها خطوة ثانية تزيد ما تقرَّرت أصوله وقواعده ألقًا وإشراقًا، وهذا واضح فيما نراه من تطبيق متعسِّف لنظريَّات يجافي منطقها الدَّاخليُّ منطق العربيَّة وسماتها.

- انتقى الجرجانيُّ علم المعاني من علم النَّحو، وهذا دليل قاطع على أنَّ الأخير صورة وجدانية حية لطبع العربيِّ الأوَّل ونظرته إلى الأشياء؛ ولهذا كان حافلًا بما يمكن أن يُعتَصَر منه حتى يكون أساسًا لعلم آخر؛ ولهذا أيضًا فإنَّ عزل المعاني عن النَّحو إزهاق لروح الفكرة في مهدها وبترٌ مضلل يُفقِد الفكرة الناطقة تأثيرها الوجداني الذي صُنِعت لتؤدِّيه

---

[41]- الحيوان: جـ1، ص: 205. وقد أخذه عبد القاهر في أسرار البلاغة، ص: 147-148.

[42]- يقول الشيخ عبد القاهر: **«واعلمْ أنَّك لا تشفي العِلَّة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين، حتَّى تتجاوز حدَّ العلم بالشَّيء مجملًا إلى العلم به مفصلًا، وحتَّى لا يقنعك إلا النَّظر في زواياه والتَّغلغل في مكامنه، وحتَّى تكون كمن تتبَّع الماء حتَّى عرف مَنبَعه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يُصنَع فيه إلى أن يعرف مَنبِتَه، ومجرى غُرُوق الشَّجر الذي هو منه»**. دلائل الإعجاز: ص: 260.

[43]- من الحصاد القديم: محمد، محمد أبو موسى، ص: 20-21.

– تناول البحث جملة من النُّصوص في كتاب المقتصد، أثبتت أن نظريَّة النَّظم بوصفها آخر ما ألَّف الرُّجل، لم تكن وليدة دلائل الإعجاز؛ بل كان قد تنبَّأ بميلادها منذ شرح كتاب الفارسيِّ، وأحسَّ بها إحساسًا مبهما نوعًا ما، إلى أن آتت أُكُلَها مرَّتين في دلائله.

– ليست نظريَّة النَّظم بناء مهلهلًا، أو مفتقرًا إلى تبويب؛ بل هي بناء متَّسق اتساقًا عقليًّا واضحًا لمن أنعم النَّظر في صلة الباب بما يليه، وهي صلةٌ عقليَّة تثبت أن ما ذهب إليه بعض المجدِّدين عبث صُراح، وقول مَنْ لا يوفِّي الكلام حقَّه من النَّظر والتَّأمُّل والتَّأويل الدَّقيق.

– لعلَّ في انتقاء عبد القاهر لعلمه الذي انفرد به، مثالًا عاليًا على جهاد العقول المخلصة، وأهمية الاهتداء بما جاهدت من أجله، إذا أراد الجيل أن يخطو في تراث السَّلف خطوة أخرى تزيده نورًا وتألُّقًا؛ لأنَّه منهج دقيق راق، يعلم خطوات وضع العلوم، ونحن إلى منهجه أحوج في زماننا الذي كثرت فيه الأغاليط عن موت الحسِّ البلاغي، وجمود النَّحو العربي، وغيرها من التُّهم والبلايا التي ضربت بين الجيل وتراثه العتيق النفيس حجابًا مستورًا.

– أظنُّ ظنًّا أشبه باليقين أنَّ الذين اجتهدوا ليجدِّدوا في النَّحو العربي، قد قرأوا نصَّ الجرجانيِّ، الذي انتقى فيه ما انتقى من علم النَّحو، قراءةً عوراءَ لا تبصر من الكلام إلا جهة واحدة، استنتجت أنَّ الانتقاء الذي قصده الرَّجل، معناه أنَّه آثر شيئًا وتخلَّى طائعًا عن أشياء أخرى من أبواب النَّحو العربي، فطفق أكثرهم مسحًا بالنَّحو يحذف منه ما هداه إليه عقله أن يحذفه. وهذا واضح فيما قدموه بلا تجنٍّ.

–وههنا رأي آخر يقف إلى جوار سابقه؛ ذلك أن الجرجاني–على وفق ما رأى البحث في صفحات مضت– قد انتقل إلى دلائل الإعجاز ليغمس قلمه في غور جديد بناه على الأول، وهو البحث في الأسلوب، من حيث هو صورة متكاملة لنفسيَّة صاحبه وطريقة تفكيره، والمفاضلة بين أسلوب وأسلوب، وبين ونظم ونظم، فتجاوز حركات الإعراب دون إهمالها[44]؛ لأن من المحال أن يتسابق أهل البيان أو يتفاضلوا برفع الفاعل ونصب

---

[44]– يقول إبراهيم مصطفى: «فالنُّحاة حين قصروا النَّحو على أواخر الكلمات وعلى تعرُّف أحكامها قد ضيقوا من حدوده الواسعة، وسلكوا به طريقًا منحرفة، إلى غاية قاصرة، وضيعوا كثيرًا من أحكام نظم الكلام، وأسرار تأليف العبارة»، إحياء النحو: ص: 2–3؛ وهذا فهم للأفكار مبتسرٌ، وعزل للفكرة عن سياقها الذي تبصر منه، ومنه دونه تعمى؛ فالجرجانيُّ كما قال في المقتصد جعل الحركات أماراتٍ على اختلاف مقاصد المتكلِّم وأحواله النَّفسية، ولكنَّه في الدلائل وسَّع مجال بحثه إلى أسرار العبارة وطرائق البشر في التعبير عمَّا يجول في خواطرهم؛ ولهذا وجدَ علامة الإعراب قاصرة عن الوفاء لهذه الغاية؛ فمن غير المنطق أن يُفضَّلَ امرؤ القيس على غيره مثلا بالرَّفع والجر والنصب؛ وأنا أُحيلُ على مواضع من دلائله ليتأكَّد صدق ما نحن فيه؛ ينظر: ص: 98/109/286/291/395/396. وفيها يشير الرَّجل إلى أنَّ العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، والمشترك لا يمكن عقلًا أن تجري به مفاضلة، أو

المفعول؛ لأنها أمور تعلَّمها الصَّبيُّ بالفطرة من فصيلته التي تؤويه؛ ولهذا فالتَّجديد يحتاج إلى العيش مع هذا الأصل العتيق زمنًا مديدًا، بعيدًا عن العجلة التي لا تفضي إلا إلى أمثال ما نحن فيه.

– ومن تمام العناية بمنهج الجرجانيِّ، واتخاذه قاعدة للبناء والتَّفريع، أنَّ الرَّجل كان يزاوج بين النَّحو والشِّعر مزاوجة واعية كانت أصولًا عالية من أصول منهجه فيما انتقى واستصفى؛ ولهذا فعزل النَّحو أو علم المعاني أو غيرها من علوم العربية عن الشِّعر، منهج يفضي إلى نتائج مخيفة كالتي نسمعها عن الجمود وما هو من واديها؛ ولهذا فتعليم أبواب النَّحو العربي، لا يمكن أن يجد الطَّالب متعةً فيه، أو ينشرح له صدره إلا بوضع الشِّعر إلى جوار القاعدة النَّحويَّة، وضعًا يبعث فيها حياة جديدة، ويضفي عليها من الرِّقة والطُّلاوة ما يجعل النَّفس تتقبَّلها بقَبُول حسنٍ[45].

يصدقَ عليه من التَّمييز قانون، ولكنَّه يبحث عن دقائقَ وأسرارٍ مستقاها العقل، وخصائصَ فكريةٍ طريقُ العلمِ بها الرَّويَّةُ والفكرُ، وهذا قوله بلسانه. ثمَّ يأتيك من يدَّعي أن النَّحاة أغفلوا أسرار العبارة، وضيقوا حدودها. ولله الأمر.

[45]– وهذا واضح في صدر الدلائل لمن شاء أن يستزيد. يقول مثلًا: «**ولما لم تعرف هذه الطائفة هذه الدقائقَ، وهذه الخواصَّ واللطائف، لم تتعرَّض لها ولم تطلبها، ثمَّ عَنَّ لها بسوء الاتفاق رأيٌ صار حجازًا بينها وبين العلم بها.. وهو أن ساء اعتقادُها في الشِّعر الذي هو معدنُها، وعليه المعوَّل فيها، وفي علم الإعراب الذي هو لها كالنَّاسب الذي ينميها إلى أصولها، ويبيِّنُ فاضلها من مفضولها**»؛ دلائل الإعجاز: ص: 7–8.

المصادر والمراجع:

1. إحيـــاء النَّحو: إبراهيم مصطفى، ط2، القاهرة، مصر، 1992.
2. إنبـــاهُ الرُّواةِ على أنباه النحاة: القِفطي، تح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1986.
3. أســـرار البلاغـة: عبد القـاهر الجرجـاني، تـح: محمود شـاكر، دار المـدني، ط1، جدة، السُّعوديَّة، 1991.
4. توضيـــح المقاصد والمسالك بشرح ألفيَّة ابن مالك: المرادي، تح: عبد الرحمن علي سليمان، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 2001.
5. تجديد النحو: شوقي ضيف، ط6، دار المعارف، القاهرة، مصر، (دت).
6. الحيـــوان: الجاحظ، تح: عبد السَّلام هارون، ط2، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، 1965.
7. الخصائـص: ابن جنِّي، تح: محمَّد علي النجَّار، د.ط، المكتبة العلميَّة، مصر، د.ت.
8. دلائـــل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تـح: محمود شاكر، ط3، دار المدني، جدة، السُّعودية، 1992.
9. دراسة في البلاغة والشعر: محمَّد محمَّد أبو موسى، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 1991.
10. رسالة في الطَّريق إلى ثقافتنا: محمود محمد شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2006.
11. الكتـــاب: سيبويه، تـح: عبد السَّلام هـاورون، ط3، مكتبة الخـانجي، القـاهرة، مصر، 1988.
12. مدخـــل إلى كتابي عبدِ القاهر الجرجانيّ: محمَّد محمَّد أبو موسى، ط2، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 2010.
13. المغني في أبواب التوحيد والعدل (خلق القرآن): القاضي عبد الجبار، قوم نصه إبراهيم الأبياري، إشراف: طه حسين، د.ط، وزارة الثَّقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت.
14. المقابســـات: أبو حيان التوحيدي، تـح: حسن السَّندوبي، ودار سعاد الصَّباح، ط2، الكويت، 1992.
15. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلِّين: أبو الحسن الأشعري، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ط، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1990.

16. المقتصد في شرح الإيضاح: عبد القاهر الجرجاني، تح: د. كاظم بحر المرجان، د.ط، دار الرَّشيد، العراق، 1982.
17. من أسرار اللُّغة: إبراهيم أنيس، ط6، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1978.
18. من الحصاد القديم: محمد محمد أبو موسى، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 2018.
19. مناهج تجديد في النَّحو والبلاغة والتَّفسير والأدب: أمين الخولي، ط1، دار المعرفة، القاهرة،1961.
20. النقد العربيُّ القديم والمنهجيَّة: عبد القادر القط، مجلة فصول، القاهرة، مصر، م1، ع3، 1981.
21. نمط صعب ونمط مخيف: محمود محمَّد شاكر، ط1، مطبعة المدني، جدَّة، السعودية، 1996.
22. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: السُّيُوطي، تح: أحمد شمس الدِّين، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، 1998.